دروز حوران وحرب ابرهيم باشا

ان المشايخ بني حمدان من كبراء الدروز في لبنان بعد الامراء كانوا في قرية (كفرا) من غرب لبنان قرب شملان في الشوف فناوأهم الامراء التنوخيون وخربوا قريتهم فساروا الى حوران منذ قرنين ونصف او اكثر ومعهم آل نكد من الدروز ايضاً فهم اقدم من سكن حوران. وكانت زعامة تلك البلاد بيد الحمدانيين ولاسيما بعد ان استظهر القيسيون على اليمنيين في موقعة عين دارة فوق قب الياس من البقاع اللبناني سنة ١٧١١ م فذهب الدروز اليمنيون الى حوران واعتصموا في الجبل الذي نسب اليهم ودانوا لمشايخهم الحمدانيين مدة قرنين ونيف الى ان ظهر آل الاطرش الذين صار جدهم من وادي التيم الى حوران واخذوا الزعامة من الحمدانيين وبقوا يديرون شؤون طائفتهم الى اليوم. وهم منتشرون في ثماني عشرة قرية هي: السويدا وعترة وارسماس والمجيمر والقرية وبكة وحوط وذيبين وام الرمان وغربة شيح وعنز وصرخد وشنيرة وامتان وعرمان وملح والهوية وابو زريق

وسمي حوران بالعبرانية المغاور لكثرتها فيها وهي قديماً من اقسام ارض باشان او البثنية بمعنى القرية الغنية بالعبرانية وكان هذا الاسم يطلق على خمسة اقاليم شمالية في عبر الاردن وهي الجيدور او ايطورية بمعنى الجبلي. والجولان بمعنى الدائرة وهي التي سماها اليونان تراخونيتس والعرب اللجا والعامة الوعرة. وحوران بمعنى المغاور

في تلك البقاع موقع جبل الدروز الذين حطوا فيه وهو الى جنوبي دمشق جبال شاهقة وتلال ورعان وسهول يحدهُ الغوطة من الشمال وجبال الصفا من الشرق وما وراء الاردن او الشرق العربي من الجنوب واللجا وسهل حوران من الغرب ومساحتهُ نحو ثمانية آلاف كيلو متر مربع وعدد سكانهِ اثنان وخمسون الف نسمة منهم ٤٤٤٠٠ من الدروز و٤٦٥٠ من المسيحيين و٧٣٠ من المسلمين. يجند من حملة السلاح نحو خمسة عشر الفاً ونيف. وعدد العربان التي تخيم فيه نحو عشرة آلاف من قبيلتي زبيد والباهل وتحتها بطون وافخاذ كثيرة

وكان في حوران بضعة وثلاثون اسقفاً للمسيحيين لم يبقَ منهم الآن الا اسقفان للارثوذكس والكاثوليك لان سكانهُ هجروهُ الى سورية ومصر من جراء الاضطهادات

والحروب والقحط ونحو ذلك. وفيها قلاع عظيمة كقلعة صرخد المشيدة سنة ٢٧٢ م. وقلعة بصرى اسكي شام (اي الشام القديمة) حوت في القرن السابع للهجرة الى قلعة وكانت ملجأ رومانيًا. وقلعة النبي ايوب قرب قنوات. وقلعة سيس في جبل الصفاء وقلاع اذرع ونخلة وقنوات والمليت وغدارة والشهباء ومعظمها خرب

وفي المزيريب قلعة قديمة رممها السلطان سليم العثماني لحماية الحجاج سنة ١٥١٦ م تسمى الآن القلعة العتيقة وفيها ثكنة للجند حديثة تسمى القلعة الحديثة

اما قلاع جبل الدروز فقد شيدت حديثًا على اثر الحروب التي دارت رحاها بين سكانه والحكومة المصرية والعثمانية. مثل قلعة (دراريق) قرب عرة التي شيدتها الحكومة العثمانية على اثر موقعة قرّاصة سنة ١٨٧٨ م تخريبها آل الاطرش. وقلعة (المزرعة) في موقعة سنة ١٨٨٠ م خربوها ايضًا. (وقلعة السويدا) التي شيدت سنة ١٨٩٠ م على اثر موقعة الحراك وهي حصينة باقية. والسويدا مدينة قديمة سماها اليونان (نيابوليس) اي المدينة الجديدة وذكرتها التواريخ ونسب اليها بعض العلماء وموقعها حصين وسكانها نحو خمسة آلاف من الدروز وهي قصبة الجبل وبينهم قليل من الارثوذكس وفيها آثار مهمة وهي معتصم آل الاطرش زعماء جبل الدروز

ولقد حارب جبل الدروز في عشر مواقع مشهورة في التاريخ والحادية عشرة ثورتهُ الاخيرة ولما كان غرضنا من هذه المقالة تفصيل حروبهِ لابرهيم باشا المصري اقتصرنا عليها الآن غير ناسين ما اظهرهُ الدروز في حروبهم من البسالة والاتحاد الغريبين في جميع مواقفهم مما شهد لهم بهِ كبار القواد وزعماء الجنود الذين حاربوهم او شهدوا حروبهم

حرب ابرهيم باشا والدروز

بعد ان استتب الامر لابرهيم باشا في سورية ثلاث سنوات طلب من الامير بشير الشهابي الكبير حاكم لبنان ان يجند من دروز ولايتهِ الفًا وستمائة لينتظموا في سلك الجند النظامي المصري. وكان ابرهيم باشا يظن ان التجنيد في سورية كالتجنيد في القطر المصري ولكنهُ اخطأ الظن لان السوريين كانوا بعيدين عن التجند القانوني لانهم استعاضوا عنهُ بشهود الحروب بانفسهم عند ما يستصرخهم حكامهم

فجمع الامير بشير زعماء الدروز في بتدين واوامر ابرهيم باشا لتجنيد الشبان من ابن خمس عشرة سنة الى خمس وعشرين والحَّ عليهم بالطاعة فابوا فتوسط الامر مع ابرهيم باشا فلم يفلح بل الحف وقدم بعشرة آلاف جندي الى بيت الدين فاضطر الامير الى جمع

الف ومائتي شاب من الدروز ارسلهم الى عكاء جبراً وانتظموا في الجيش المصري وأرسل بعضهم الى مدارس حربية في مصر

فاوغر ذلك صدور الحورانيين الدروز وغيرهم وجسر خيفة وتحفزوا للمناوأة اذا سنحت منهم مثل ذلك الى ان حانت سنة ١٨٣٥ فكتب ابرهيم باشا الى محمد شريف باشا والي دمشق يأمره بتجنيد الدروز في حوران كما جندوا في لبنان وسيأتي عليه

فاستقدم شريف باشا شيوخ حوران وفي مقدمتهم زعيمهم الاكبر الشيخ يحيى حمدان وتفاوضوا بذلك في مجلس عقولهم فابوا فاخذ ينصحهم بالاخلاد الى الطاعة لانها افضل من العصيان . فاشار اليه الشيخ يحيى ان يستبدل التجنيد بمال لان الشبان يردون غارات العرب عنهم وان يخاطب بذلك ابرهيم باشا واظهر حدة في الكلام فقابله شريف باشا بصفعة على وجهه. فكظم غيظهُ واظهر الطاعة مرغماً وذهب مع رجاله وهم يرغون و يزبدون من هذه الاهانة . فلما وصلوا الجبل واوقفوا الشيوخ على ما جرى اجمعوا على العصيان واعلنوا الثورة بموافقة رئيسهم الروحي الشيخ ابرهيم الهجري وكان شيخ نجران حسين ابو عساف اول من جاهر بايقاد نار الثورة . ولذلك فاوضوا عرب السلوط المخيمة عندهم لمساعدتهم فجمعوا الف رجل منهم ومائتين من العرب ليقاوموا التجنيد فبلغ ذلك شريف باشا وابرهيم باشا فتأهبا لتجنيد الدروز غصباً

فارسل ابرهيم باشا جنداً من الهوارة والصعايدة بقيادة علي آغا البُصيلي (او الرُجيلي) بصحبة عبد القادر آغا ابو جنب الدمشقي متسلم حوران وجبل الدروز فجمعوا الشيوخ وطلبوا منهم تسليم الشبان للتجنيد فابوا وخرجوا عازمين على الحرب

فهاجم الدروز ليلاً عسكر ابرهيم باشا في محلة (الشعلة) وكان نحو اربع مائة فارس وقتلوهم الا القائد فانهُ نجا مع بعض الفرسان فتعقبهم ابرهيم الاطرش عم اسماعيل جد الطرشان وشبلي آغا العريان زعيم دروز راشيا الذي قدم لذلك القصد وفندي عامر . والعامريون هم بعد الطرشان في المنزلة . فقتل ابرهيم الاطرش والمتسلم ابو جنب في هذه المناوشة فاشتد الدروز اصراراً على المقاومة

ولما نمى خبر العصيان الى ابرهيم باشا قرر محاربة الدروز وتدويخهم . وكان الدروز قد اعدُّوا عدتهم للمحاربة والدفاع عن جبلهم الحصين بمعاقله الطبيعية وحفظ استقلالهم الذي كانت صخور جبال حوران تساعدهم عليه لوعورة مسالكها ومشقة قطعها فانضم اليهم بعض اللبنانيين وسكان وادي التيم واقليم البلان الذين راسلوهم بايقاد النيران باشارات

خاصة على عاداتهم . وهكذا كانت مقدمات الحرب التي بقيت تسعة اشهر مشتعلة الضرام

حروب العسكر المصري في حوران

فلما رأى ابرهيم باشا وشريف باشا ان الدروز اشعلوا نار الثورة وتأهبوا لها ارسلا اثني عشر الف جندي وقيل اكثر من هذا العدد بقيادة محمد بك المصري مزودين بالمدافع فخيموا مقابل اللجا في بصر الحريري حيث تقابل الجيشان واستمر القتال فخسر الدروز الموقعة بعد ابلائهم فيها وابداء شجاعة فائقة وقتل كثير من الفريقين . ثم اظهر الدروز انكسارهم فاخلوا القرى ودخلوا اللجا او الوعرة [1]. فانطلت خدعتهم على القائد فتأثرهم مشغولاً بجيشه في الوعرة حتى اطبق الدروز عليه واصلوه ناراً حامية فجندلوه قتيلاً وبددوا شمل جيشه بعد ان قتل منه نحو الفين

فوصل الخبر الى ابرهيم باشا فارسل خمسة عشر الف جندي بقيادة عليفور بك فاصابه ما اصاب سالفه من قتل جنوده وتشتيتهم فقويت عزائم الدروز بظفرهم واشتد ازرهم بانكسار محاربيهم وكانوا يسيرون تحت راية الشيخين حسن جنبلاط وناصر الدين العياد من كبار دروز لبنان الذين انضموا اليهم برجالهم فصار عددهم عشرة آلاف مقاتل من فرسان ورجالة فقطعوا الطرق حتى اضطرب حبل الامن بنهب القوافل السائرة بين بيروت ودمشق في وادي القرن وقتل الجنود المصرية والطلائع التي يظفرون بها . وقتل منهم في هذه المناوشات ناصر الدين المذكور

فكتب ابرهيم باشا الى والده في مصر يستنجده بارسال عسكر من الارنؤوط الذين يستطيعون الثبات والسير في اللجا معتصم الدروز المنيع لان عسكره النظامي لا يستطيع ذلك . فجهز له والده اربعة آلاف مقاتل تحت لواء مصطفى باشا كامل فزحف بهم الى الوعرة وانضم اليه جيش شريف باشا والي الشام وكان امير اللواء احمد باشا المصري شقيق محمد باشا الذي قتل في اللجا كما مرّ وهذا آت للاستثار من الدروز لاخيه

فجزع الدروز من هذه الحملة العظيمة ولكن زعماءهم الحورانيين شجعوهم وحملوهم على الثبات تجاه الاعداء مهما كثر عددهم وكان في مقدمة المشجعين الحمدان والمجري والعريان فجمع الدروز قواهم برباطة جأش واستبسلوا في القتال فدحرهم الجند المصري الى ان

(١) وهي ارض متسعة بين الجبال بناية الوعورة على طول مرحلة وانها ضيق حرج كثير المكامن في الجانبين لا يدخل اليها الا منه فيعرض الداخل نفسه للهلاك فهي اشبه بالتيه الذي لا يعرف الخروج منه الا المجيدون به ممن عرفوا حياتهم فيه

وصلوا الى قرب أسرهم (عيالهم) فصاحت النساء بالزواغيد فسمعهم على القتال وتضرم فيهم نيران الحمية فعادوا الكرة على المصريين غير مبالين بنيران المدافع التي كانت تقصف منقية عليهم القنابل العظيمة حتى كسروا الجيش ودحروا والي الشام فر وجرح احمد باشا امير اللواء ومات محمولاً الى مصر على اثر جرحه

فشئت العسكر المصري فلولاً في تلك الاراضي يذرعونها تائهين شاردين فقتل الدروز منهم في الفج نحو ثلاث مائة . وقطع شبلي العريان الطريق على من اراد الرجوع منهم في الغوطة . فسلم بعضهم وسلاحهم باقية عنده الى اليوم

فكتب ابرهيم باشا الى الامير بشير ان يوجه حفيدهُ الامير مجيد قاسم الى نواحي دمشق لقطع الطريق بين دروز لبنان وحوران حتى لا يتحدوا وان يوجه حفيدهُ الامير محمود خليل الى حاصبيا لارهاب الدروز . فلم يتمكن الاميران من القيام بما انتدبا اليهِ لان دروز لبنان بعد ان كانوا يجدون اخوانهم في حوران سرّاً صاروا يجدونهم جهراً وكذلك بقية الدروز

وارسل والي الشام الى ابرهيم باشا وهو في حلب يخبرهُ بما جرى ويستنجدهُ على خصومهم الاقوياء وجمع الوالي باقي عسكره الذي كان نحو ثمانية آلاف جندي وذهب بهم الى حوران فلم يحارب الدروز ولكنهُ عطّل مياه ثلاثة ينابيع حول الفج ليقهرهم ويلجئهم الى التسليم وابقى مياه قرية (عاهرة) فقط ووضع عليها خفراً لحراستها ومنع الاعداء عنها . وسعى باثارة عرب (ولد علي) على الدروز فناوشوهم القتال

وفي تلك الاثناء كان ابرهيم باشا قد قدم بعشرين الفاً من الأرنؤوط والاكراد والاتراك وصمّم على محاصرة الجبل وافساد مياهه ومنع الميرة عنهُ فطلب من الدكتور كلوت بك رئيس مدرسة قصر العيني الطبية في مصر الذي كان مع الجيش جرّاحاً أن يسمّم لهُ المياه فابى فاستخدم كيماوياً آخر وسمّم المياه كلها ورمى الجثث فيها فافسدها وضايق الدروز عطشاً وقتلاً ولكنهم لم يخافوا ذلك بل هاجموا عسكرهُ بقيادة زعيمهم حسين درويش فشتتوا شمله واستولوا على الذخائر والمدافع والمؤن والبنادق واسروا اربعة قوّاد كبار وعشرين ضابطاً

فصار ابرهيم باشا يعود المرة بعد الاخرى الى نهب قراهم وتدميرها والتنكيل بهم مع المحافظة على الاطفال والنساء والشيوخ فضايقهم كثيراً حتى ارتأوا تحويل الحرب الى وادي التيم وما يجاورهُ لتفريق شمل الجيش المصري وارهاقه . بعد ان ثار عليهِ شمالي

صورية واضطرّ لمحاربة العثمانيين فيه

الحرب في وادي التيم وضواحيها

فلما ضاق ذرع الدروز في حوران ولامس بعد فساد مياه ونفاد المؤن عزموا على تحويل الحرب الى وادي التيم واقليم البلان فارسلوا شيخ العريان اليها ليلقي شريف باشا عنهم

ولما درى ابرهيم باشا بذلك كتب الى الامير بشير يجمع اربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان ويسلحهم اسلحة عليكهم اياها ويرسلهم مع ولده الامير خليل الى حاصبيا . وقام هو الى وادي التيم فوصل شيخ العريان بعساكره الى راشيا حالاً فقتل مشعلها لانهُ اعترضهُ وارسل والي الشام الف جندي لراشيا للمحافظة فنزلوا سراي الحكومة فحصرهم الدروز فيها حتى جاعوا واكلوا خيولهم ثم هربوا الى البقاع فلحقهم الدروز الى قرب قرية (برّ الياس) فقتلوا جانباً منهم وقبضوا على الآخرين وساقوهم الى محيدثة راشيا فذبحوهم فيها

ووصل ابرهيم باشا الى سهل عيحا (المستقع المشهور قرب راشيا) في ذلك اليوم مع خمسة آلاف جندي لانقاذ المحصورين في سراي الحكومة كما مرّ فوجدها فارغة وكان الامير مجيد حفيد الامير بشير الكبير يقود مائة وخمسين فارساً لمحاربة دروز اقليم البلان شرقي جبل الشيخ فصادف مع مائة فارس من عرب الهنادي لتبيت في قرية مجاورة فسار الهنادي كعادتهم في طليعة الجيش فلما دنوا من القرية كان نحو مائتي درزي حوراني بقيادة الشيخ حسين داود من بنطا وهو من انسباء العريان فكمن الدروز للهنادي وقتلوا كثيراً منهم فانكسر هؤلاء راجعين الى معسكرهم الآتي وراءهم فطاردهم حسين داود ورفقاؤهُ قاصداً العسكر الذي يقودهُ محمود باشا البردخلي فارسل هذا عسكرهُ وهو خمس مائة ارنؤوطي عدا العساكر المنظمة لمحاربة الدروز فأبلى قائدهم حسين داود بلاءً حسناً وقتل عدداً من العسكر بهجومهِ دون ان يصاب باذى. فطلب البردخلي ضم عسكر الامير مجيد الشهابي ومحاربة الدروز بهم وكان بينهم درزي من بني عبد الصمد ترك عسكر الامير لينضم الى قومهِ الدروز فقتلوهُ . وانجلت هذه المعركة عن قتل ثلاثة من عسكر الامير وجانب من الدروز الذين اركنوا الى الفرار وكان ابرهيم باشا قد نهب راشيا وفرَّ منها سكانها وغنم عسكر العريان من دروز وادي التيم في جبل الشيخ قرب (عيحا) وصاروا كل يومين او ثلاثة يناوشون المعسكرين القتال فانكسر الدروز . ثم التقوا بواقع الحرى هناك مع الامير خليل الشهابي الذي كان يقود ستة آلاف جندي في حاصبيا ومع عسكر ابرهيم باشا والعسكر النابلسي . وكان الدروز قد جمعوا لقاءهم

واطفالهم وشيوخهم ونساءهم ومقتنياتهم المتنقلة في سطح جبل الشيخ فهاجموهم وانكسرت الفرقتان اللبنانية والنابلسية من الفرق التي تحارب مع المصريين . واما فرقة ابرهيم باشا فوصلت الى ظهر جبل الشيخ حيث الأسر الدرزية فطلبت تسليم الاسلحة فسلموها وهي اربع مائة بندقية . واما العربان فلما رأى ذلك فرّ الى حوران . وسار ابرهيم باشا الى قطنا في وادي العجم . ثم رجع العربان من حوران لما لقي هناك من الضغط ليسلم عن يد الامير بشير الشهابي فقاومهُ من صقبين في البقاع مع احد خاصتهِ فأبى الامير قبولهُ . فسار العربان اذ ذاك الى قطنا وسلّم فيها لابرهيم باشا وسلّم الدروز في اللجا لشريف باشا

واحرقت قرى كثيرة في وادي التيم وحوران كان الثوار يلجأون اليها . ومن اهم المواقع التي جرت في وادي التيم موقعة وادي بكّة وموقعة شيحة وموقعة قلعة جندل التي انقذ فيها احد سكانها مخايل عيد المسيحي العربان وقومهُ . وموقعة عين الصفصاف قرب رخلة وهي بين جبال تحيط بها وكان رجل مسيحي اسمهُ امين شحرور قد تعهد لابرهيم باشا بقتل العربان فقصدهُ بثلة من الجند نحو خمس مائة والعربان في عين الصفصاف فلما رآهُ مقبلاً خدعهُ بان اشار الى جنودهِ ان ينادوا باسماء مسيحية لا دوزية مثل بطرس وحنا ونقولا فظنهم شحرور انهم من الجند اللبناني فترك سلاحهُ هو وعسكرهُ ونزل لمقابلتهم فقبضوا عليهِ وعلى رجالهِ وعرّوهُ واركبوهُ على بغلة وعذبوهُ وارادوا قتلهُ فتضرع للعربان ان يعفو عنهُ واعداً اياهُ انهُ يطلب لهُ العفو من ابرهيم باشا فيستبقي حياتهُ اذا استبقى هو حياتهُ . وهكذا كان فان شحروراً هذا مع احد رجال ابرهيم باشا وهو جرجس ابو دبس من بكفتا توسطا امرهُ مع ابرهيم باشا فعفا عنهُ بعد تسليمهِ بواسطتهما

وهكذا انتهت الفتن الدرزية التي ثارت على الجنود المصرية في حوران ووادي التيم. وسنة ١٨٣٦ عصا عرب جبل الصفا شرقي حوران فارسل ابرهيم باشا الامير مسعود ابن الامير خليل الشهابي ابن الامير بشير الكبير بعسكر فاخمد ثورتهم وعاد الى لبنان ظافراً

ويوم الخميس في ٧ تموز سنة ١٨٣٨ م تسلم ابرهيم باشا اللجا من الدروز واخذ ينظم شؤونهُ وفي ١١ منهُ عاد الى دمشق ودخلها باحتفال عظيم

ثم انتقض عليهِ اللبنانيون والنابلسيون وحاربتهُ الدولة العثمانيون فبرح سورية . ثم تركها بعدهُ الامير بشير الى مالطة فالاستانة وعقب ذلك ما عقبهُ من الفتن الاهلية سنة ١٨٤١ و١٨٤٥ و١٨٦٠ م مما سوّد تاريخ البلاد بمذابحهِ الهائلة

زحلة عيسى اسكندر المعلوف